قصة
بناتُ النّهارِ
« الأدبُ السّاحرُ »
جمال بن عبد الله الحيان
MOHAMMAD
Abu-Salah

الترقيم الدولي :

007866_5567_23

تحقيق ومراجعة :

«الشرطيّ الخلّ والصديق»

تقديم الكاتب :

ليس من الضروريّ أن تكون هذه القصة حقيقية، وليس من المؤكد كذلك أن تكون من نسج الخيال، هي مزيج من الأمرين ...

لأعالج فيها موضوعا شائكا ينخر في المجتمع ويهدم بنيانه، بأسلوب أدبيّ ساخر، حاولت فيه إبعاد تلك اللغة القوية والتي أصبحت عائقا لدى السواد الأعظم من القرّاء ...

أتمنى لك قراءة موفقة وممتعة .

جمال بن عبد الله الحيان .

فرحت أمي لأوّل يوم لي في العمل، كان هذا منذ زمن ليس بالبعيد، فرحت لذلك كثيرا، ولكنّ الأب حين بلغه الخبر لم يتقبّله بتلك الحماسة التي كنت أتوقّع، لا زالت تعليقاته السّاخرة شوكة عالقة في حلقي، إلا أنه في داخله كان فخورا وشبه فخور حتى يرى استمراريتي في العمل.

كنت أتذكر هذا دائما، كانت تعبر كخواطر من سنين الماضي، يصحبها حنين التوق لتلك الأيام، فلقد اعتادت أمي أن تعد لي وجبة الغذاء ليلا كي آخذها معي للعمل والذي كنت أنطلق إليه مع الثالثة صباحا، أراها الآن أيّاما حلوة ...

يكتنفني الغمّ والهمّ وقتذاك، وقتها اجتمعت عليّ هواجس نفسي ومتطلباتها وأبي الذي بدأت أراه لم يعد قادرا على مواصلة المسير وإعالة الأسرة، وكنت آملُ أن أكون مفخرة لوالديّ أو بالأحرى تقاعدهما المنتظر، فأحيانًا أفكّر في الأمر برمّته، فأقول ساخرا :

« الماضي ...هـ ...أي ماض ... مرارة وفقر ... »

لكنّ الزمن يمضي بسرعة خاطفة فتتبدّل معه الأفكارُ والرؤى ... تكبر الهموم في القلب .

كنت جالسا ذات يوم – بعد عشر سنين من ذكرايَ التي استفتحت بها قصتي هاته – في المقهى أمرّر بصري وأجول به في ساحة أسراك بتارودانت، أدعه يتسلّقُ كلّ شيء، الارتفاعات الفارغة، أدعه يتسلّق هندام الفقير، ومشية المختال، وأعجوبة المرأة الأربعينية ...

كما أزور مختلف الأكواب على الطاولات إلى حدّ لا تضّح معه التفاصيل، وأدرك فجأة أنّ الوقت حان لإشعال سيجارة فخمة .

الأرض الحمراء تلمع وقد رَشّت السماء بعضا من أجزائها، كل شيء نظيف، صمت وهدوء. أتعبت عينيّ من كثرة التحديق في العلوّ كلما نفثت دخان السيجارة الباردة، وها أنا ذا أعود إلى الفضاء المحيط بي. وحيدٌ دائما أو غالبا .

كان الوقت ليلة ديسمبرية، والجوّ قد ابردّ وانسلخ كلّ لمخدعه تاركين الصقيع يجوب السّاحة وحيدا، وأنا كجماد أو كصنم أو بالأحرى تمثال متروك للأشياء الصّامتة هنا، والمسكونة باحتمال أن تنطق ناهرة إيّاي .

دوى صوت مكبّر الصوت ليخبر الجميع بوقت صلاة العشاء، فهرعت كلّ الجموع بمدخنيهم ومؤمنيهم و منافقيهم ولواطييهم ... هنا يبزغ وعي جديد ... قلت لنفسي وقد أرخيتُ العنان لريح عاصفة قد سُمع دويّها في الساحة التي أصبحت فارغة، فتحررتُ وتحررت أمعائي من حملها الثقيل، لم أعرف كيف أكتمها واستسلمت لها، فجلجلت في داخلي ضحكة صادقة، تجرعت مرارتها فور شمّي لوجبة العشاء بعد تكريرها في ظرف قياسي .

أنظر لساعة الهاتف. إنّها الساعة السابعة مساء وثوان تزحف في مدارها الأبدي، قال لي الشرطيّ العجوز :

« تذكرتك، أأنت الذي تغوطت في النّقل المدرسي للأمن الوطني منذ زمن ليس بالبعيد .!!»

فتحت باب الحوار بيني وبينه دون أن أنظر إليه :

« لا ... ربما شخص آخر »

لم يزد كلمة واحدة، وفجأة جلست بجانبي في الطاولة الموالية لمقهى أمستردام امرأة أربعينية تلبس جلبابا ضيّقا والذي كشف مؤخرتها المزمومة كقنينة بلاستيك تعرضت للّهب فانكمشت، قروية

متمدّنة بكل ما أوتيت من قوّة، وبصحبتها ابنتها ذات الملابس العصرية والألوان الهادئة، بحذاء أسود أنيق، وشعر انكشف جزء منه .

جلستا بهدوء، لم تكترثا لمن حولهما بما فيهم أنا، فمن سيلتفت لفجلة تشرب القهوة بثيابٍ ممزقة ووجه ممصوص، ولو كان هناك قليلٌ من الاهتمام ما كتبت قصتها والتي ستظل إلى الأبد، فكم هو صعب التجاهل والازدراء وخاصة معي، ولم أكن في الحقيقة مدعاة للقلق بقدر ما كنت مدعاة للطمأنينة، حدّقت فيّ الفتاة قليلا ولاحظت أني غير مكترث أصلا، ثمّ أعادت إكمال حديثها على الواتساب، وهزت يدها لقادم من بعيد، يسير على الأرض المبتلة وهو يباعد بين خطواته، متجنبا أمكنة تجمّع المياه، رأيته يخطف نظرة إليّ ... لم أبالِ.

عاد من جديد يتحسس مدى انتباهي له إلى أن جلس أمام الأم على ما يبدو، قال شيئا لم أسمعه، وبدأ في الحديث مع الأم بشكل خافت وهي تهزّ رأسها تارة بالنفي وتارة بالإيجاب، والفتاة منهمكة في الرد على رسائل المسنجر والذي كنت أسمع رنّته المعروفة، مدّ يده باتجاه البنت كي تترك الهاتف، وفهمت من ذلك شبه فكرة ...

إنتقل إيقاع السمفونية العاصفة إلى درجة جنرال فهرب كل من كان تحت الأشجار المحيطة بنا، تساءلت كأني أرى ذلك لأول مرة :

« وماذا تراني أنتظر ... هروب ، هرولة، ضحك، سخط ... »

فبعد دقائق من تلك الرعدة القوية والصبيب المنهمر، طلب مني جليسها ولاعة فأجبت سريعا أنّي لا أدخّن، وأمامي منفضة بها ثلاثة أعقاب لا زال دخان إحداها المزرقّ يتصاعد للسماء، حدّق فيّ بشزر وسكت، فصمتتا أيضا ... لا تعليق .

عندها أخذت بعض الكتب على الطاولة والتي قد أعارها لي صديقي صلاح الدين الغائب في ذلك اليوم، بدأت باختيار من أين سأبدأ، فقررت أن أقرأ لِلمغاربة أولا، نظرت للفتاة خلسة فإذا بي أراها تشبه كثيرا آكل النّمل، أغمضت عينيّ وفتحتهما من جديد لأرى أن آكل النّمل قد أصبح قردا، فتأكدت حينها أني أعاني شيئا أقبح من عمى الألوان وهو عمى الأشكال الذي اخترعته للتوّ، فبعد الهروب الكبير غرق المكان في هدوء نسبي، لسعتني نسمة باردة وأخذت أتأمّل كأس القهوة المشقوق من إحدى حوافّه، أخذت الهاتف أتفحص الإعجابات والتعاليق على حسابي في الفايسبوك لأجد رسالة من حساب وهمي لحواها CV bb لأردّ بانتحارية « سر تق... ».

رمشت البنت خلسة وأطلقت بسمة سرعان ما ابتلعها فمها الكبير والذي يشبه فم الجوكر غريم باتمان والذي سألتني عنه أختي منذ زمن لتقول ذات أمسية عائلية :

« هل تعرف بدر الدين »

لأجيبها بفضول :

« من هو بدر الدين هذا أيتها الأمّورة »

لتجيبني بلهفة وفرح :

« ذاك الذي يشبه الخفاش ويطير »

لأقول ضاحكا :

« اسمه باتمان يا غبية »

فضحك الجميع ضحكة لربما فقدناها حين غادر جلّ الحاضرين لدار البقاء، فرحم الله الجميع .

وسمعت الأم تخاطب جليسها قائلة :

« لك كامل الحرية نهارا، أمّا اللّيل فلا ... »

هززت رأسي وتوجهت نحو المرحاض لأداء الرسوم الضريبية لصندوق أبيض لا يكلّ ولا يملّ، غارقا في عتمة المكان الذي فقد الإنارة منذ الصّباح، وجدتني أنحني على ثقب الباب وأنا أنظر للأمّ تقلّب دفاتري وتُفتّشُ حقيبتي الجلدية، تركت الأمر على حاله وعاد تنفسي للانتظام بعدما تيقّنت أنّ هاتفي ومالي في جيبي، لمستُ القائد ولم أرده أن يستيقظ فقد تململ للتوّ، وخطرت لي فكرة لزوم نوم ملائكي على طاولتي .

كان ما كان ... تابعا حديثهما ليصلا إلى مرحلة التسعير، أخرج الغبيّ من جيبه ورقة زرقاء لم أعرف فئتها وأطلقت العنان لعيني اليسرى، أطلقت لها حرية الانطلاق في المدى، أتساءل لماذا أعطاها المال يا ترى مع العلم أنّي استنتجت نصف فكرة .

وضعت الفتاة حقيبة يدها على الطاولة بعدما كانت معلقة على كتفها، ومرّرت كلمات كثيرة للرجل بعد أن تمّت الصفقة، كلماتٌ منمقة، أرستقراطية ممزوجة بالفقر والجهل، فقالت :

« إنه زمن الداء المستفحل »

لا أدري ما قصدها بهذه العبارة، ولكنّه لم يحدث ضجيجا، وقد تغيرت نظرته ليصير ملهوفا، أغمضت عينيّ ليتسنى لي تخيّل المنظر، وقد ارتفع الزعيم إلى خصري ...

تجوّلت عيناي مجددا في الخواء هذه المرّة بدون أن ألاحظ أي شيء، لتعيد الأم :

« الليل لا ... »

أنظر مجددا للخيال من وراء المشهد، لا نصاعة في المدى المسكون برذاذ واهن ...

توقفت عيناي فقد تذكرت أمّي وهي تنتظرني عند الباب راجعا من العمل وهي تقول مستقبلة إيّاي:

« لك كامل النّهار يا بنيّ في العمل، فخذ لك قسطا من الراحة ... الليل للراحة يا بني »

فأقبّل رأسها ثم أذهب لآكل طعام العشاء وأستعد للنوم، فيا لحظّنا بالأمهات اللواتي يسهرن على راحتنا دائما .

لم تكلّ الأم وابنتها يوما من ممارسة ذلك الطقس المسائي، كما لو كانتا عازمتين على فعل أكثر من ذلك لشيء راودتني عنه نصف فكرة، وبعد أن كنت قد عشت معهما أفلاما بوليسية من المراقبة، فقد كانتا تريان من الطبيعي أن يعرف الآخرون، فكلّما كُشف الأمر ازداد الجمهور وقد تزداد التسعيرة كذلك، وما كان من شأنه أن يجعل الأمر أكثر تعقيدا، كلمة الأم « الليل لا» هو أمر أكثر صعوبة حتى في الفهم، ولكن هذا بالذات هو أيضا يضفي على ممارساتها شيئا من الشرعنة .

تشرفان من مكانهما على عديد من الزبائن الأوفياء، بجلسة دبلوماسية مبنية على الحوار والديمقراطية ومناقشة التقارير المالية بحذافرها، والقادمون يبذلون قصارى جهدهم للوفاء بقاعدة « الليل لا » فكان الصخب الخفيف الذي ينشأ عادة من كل تلك المحادثات يعيد إليّ تلك التفاصيل .

وأخيرا تنتهي صفحات هذه القصة المضحكة، فخلال إحدى الليالي والتي قيل فيها « ليلة المصيبة لا تنبح الكلاب » وبينما وقفت سيارة فارهة على الجانب المقابل للمقهى، كان ردّ الفتاة غير سالف الأيّام، لتحاول الذهاب بدون رفقة أمّها الحريصة على تسطير العناوين العريضة، وراحت تطلب من

أمّها أن تسمح لها، كان ولا بد لها أن ترضخ، فحتى بضع دقائق في السيّارة أمر لا يحتاجُ أيّة توصيات .

وبنوع من المفاجأة وعلى جنبات رصيف إحدى طرق مداخل المدينة، اختارت دورية شرطة أخذ طريق آخر غير الطريق المعتادة لتسوقهم الأقدار إلى تلك السيارة الفارهة والتي نسي الحمار فركنها في المكان الممنوع ، لتقف الدورية على معركة ضروس فوق مقاعد السيارة لمحاربين من طينة الفايكينغ، فقام المتفرّجون بعزف أغنية الأغلال، بدؤوا يرددونها ببطء كما لو كانوا يغادرون إحدى الكنائس، أو المقبرة حين الزيارة، وكان المحاربان يجمعان ثيابهما فتحول الهمس والصياح لبكاء وتوسل، ولكنّهما ظلاّ بمفردهما في قاعة المسرح الذي انعدمت فيه وسائل الراحة، ليتفرّق كل واحد منهما إلى سبيله، ولتخرق البنت قاعدة أمّها، ولتلتحق بالخيرية أياما وشهورا كسخاوة منها، أو كضريبة على الدخل والتي كانت تتهرب منها لشهور أو لأعوام ربما .

فكان الله في عون تلك الأمّ التي لن تقول مجدد لمدة طويلة « الليل لا »

{انتهى بفضل الله وكرمه في 4 ربيع الآخر 1443 هـ الموافق ل9 نونبر 2021 م}